نظرة جديدة إلى التراث الأدبى العربى

مقدمة كتاب « مختارات من أدب العرب » شرح فيها المؤلف الفكرة التى قام عليها تأليف الكتاب و اختيار النصوص العربية ، و ذكر فيها الحاجة إلى استعراض جديد لمكتبة الأدب العربى القديم و الحديث .

بقلم

الأستاذ أبى الحسن على الحسنى الندوى

مع كلمة

للاستاذ الكبير على الطنطاوى عن الكتاب

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة والسلام على سيدنا و مولانا محمد وآله و صحبه أجمعين ، و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ! فان الأدب العربى قد أصيب بمحنة أصيب بها أدب كل أمة ، و هى محنة تكاد تكون طبيعية ومطردة للآداب و اللغات إلا أن آجالها تختلف ، فقد يطول أجل هذه المحنة فى أدب قوم ويقصر فى أدب قوم آخرين ، و ذلك يرجع إلى الأحوال الاجتماعية والعوامل السياسية وحركات الاصلاح والتجديد ، و البعث الجديد ، فاذا توفرت فى أمة قصر أجل هذه المحنة ، و إذا فقدت أو ضعفت طال أمد هذه المحنة و طال شقاء الأدب و الأمة بها .

إن هذه المحنة هو تسلط أصحاب الصناعة والتكلف على هذا الأدب الذين يتخذونه حرفة و صناعة و يحتكرونه احتكاراً و يتنافسون فى تنميقه و تحبيره ليثبتوا به براعتهم و تفوقهم ويصلوا به إلى أغراضهم ، ويستمر ذلك ويستفحل حتى يصبح الأدب مقصوراً عليهم مختصاً بهم ، و يأتى على الناس زمان لايفهم من كلمة « الأدب » إلا ماأثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع وأدب تقليدى لا قوة فيه ولا روح ، ولا جدة فيه ولا طرافة ، ولا متعة فيه ولا لذة .

و يطغى هذا الأدب الصناعى التقليدى على كل ما يؤثر عن هذه الأمة ، و تحتوى عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبعى و كلام مرسل ، و تعبير

www.abulhasanalinadwi.org

بليغ يحرك النفوس و يثير الاعجاب ، ويوسع آفاق الفكر ، و يغرى بالتقليد ، ويبعث فى النفس الثقة ، ولا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب و الانشاء و لم يتخذوه حرفة ومكسبا ، و لم يشتهروا بالصناعة الأدبية ، و لم يكن لهذا النتاج الأدبى الجميل الرائع عنوان أدبى ، ولم يكن فى سياق أدبى ، و إنما جاء فى بحث دينى ، أو كتاب علمى ، أو موضوع فلسفى أو اجتماعى ، فبقى مغموراً مطموراً فى الأدب الدينى ، أو الكتب العلمية ، و لم يشأ الأدب الصناعى — بكبريائه — أن يفسح له فى مجلسه و لم ينتبه له مؤرخو الأدب — بضيق تفكيرهم و قصور نظرهم — فينوهوا به ويعطوه مكانه اللائق به .

إن هذا الأدب الطبيعى الجميل القوى كثير وقديم فى المكتبة العربية ، بل هو أكبر سناً و أسبق زمناً من الأدب الصناعى ، فقد دون هـذا الأدب فى كتب الحديث و السيرة قبل أن يدون الأدب الصناعى فى كتب الرسائل و المقامات ، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء و الباحثين و عنايتهم ما حظى به الأدب الصناعى ، مع أنه هو الأدب الذى تجلت فيه عبقرية اللغة العربية و أسرارها و براعة أهل اللغة و لباقتهم ، وهو مدرسةالأدب الأصيلة الأولى .

و نأخذ كتب الحديث و السيرة — كمثال لهذا الأدب الطبعى — أولا فنقول : إنها اشتملت على معجزات بيانية وقطع أدبية ساحرة ، تخلو منها مكتبة الأدب العربى — على سعتها وغناها — وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها ، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر و وجدانات و كيفيات نفسية عميقة دقيقة ، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة ، وهى الكتب التى حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين و أساليب بيانهم ، و لئن صح ما قاله الرقاشى : « إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر ممـا تكلمت به من جيد

المنظوم ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره » فكتب الحديث النبوى تسد هذا الفراغ الواقع فى تاريخ الأدب العربى تنقل إلينا هـذا الذخر الأدبى الذى اعتقد أنه قد ضاع ، و تمتاز أنها قد اتصل سندها و صحت رواياتها فهى أوثق مصدر للغة العربية البليغة التى كانت سائدة فى عهدهـا الذهبى الأول و للأدب العربى الذى كان منتشراً فى جزيرة العرب .

إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة و طويلة وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التى كانوا يتكلمون بها ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، ويجد دارس الأدب العربى فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية ، والوصف الدقيق ، و التعبير الرقيق ، و من عدم التكلف و الصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفا للرواة بالبلاغة و التحرى فى صحة النقل و الرواية ، و للغة العربية بالسعة و الجمال .

أما الروايات الطويلة فهى ثروة أدبيـة ذات قيمة فنيـة عظيمة و هى التى تجلت فيها بلاغـة الراوى العربى و اقتداره على الوصف و التعبير و التصوير ، و هى التى يطول فيها نفسه فيحكى حكاية يعبر فيها عن معان كثيرة وأحاسيس دقيقة ، و مناظر متنوعة ، فلا يخذله اللسان و لايخونه البيان و لا يتخلف عنه عنه مدد اللغة ، و كأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيهـا الفنان ، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الاحسان .

إقرأ معى حديث كعب بن مالك عن تخلفه عن غزوة تبوك وهو موضوع دقيق محرج ، يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير ، والشهادة على النفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجو القاتم العابس الذى عاش فيه خمسين ليلة ، ويطلب منه تصوير الخواطر التى كانت تجيش فى صدره و تساور نفسه و هو يعيش فى

www.abulhasanalinadwi.org

جفاء و عتاب ممن يحبهم و تربطه بهم العقيدة و العاطفة ، لايجد لذة فى فراقهم و لا يرى فى الدنيا عوضاً عنهم ، و تصوير تلك الصلة الروحية و الحب العميق الذى يربطه بالنبى ﷺ ربطاً وثيقاً محكما ، لا يحله العتاب والعقاب ، ولايضعفه إقبال الملوك عليه و توددهم إليه ، و تصوير ذلك السرور الذى غمره على إثر قبول توبته ، ما أصعب هذا الموضوع ، و ما أكثره تعقداً و دقة ، و لكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشاكل النفسية و الأدبيـــة ، و يترك لنا ثروة نعتز بها .

إقرأ معى هذه القطعة الصغيرة التى أقتبسها من حـــديثة الطويل ، و هو يحكى ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف وأجواء ، و يصور تلك الحالة النفسية التى تخلف فيها عن هذه الغزوة وما انتابه من التردد ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من سيرته وعادته ، وتمتع بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة و الجمال ، و صدق التصوير و براعة التعبير .

« وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ و المسلمون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع و لم أقض شيئاً ، فأقول فى نفسى وأنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد الجد . فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت و لم أقض شيئاً ، ثم غـدوت فرجعت و لم أقض شيئاً ، فلم يزل بى حتى أسرعوا و تفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، و ليتنى فعلت ! فلم يقدر لى ذلك . فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصاً عليه النفاق أو رجلا ممن عذره الله من

الضعفاء » .

ثم انظر كيف يصور حالته و قد هجره المسلمون و نهوا عن كلامه ، و كيف يعبر عن حالة المحب الذى هجره الحبيب — عقوبة و تأديباً — و هو يطمع فى وده ويتسلى بنظراته و الذى لم يزده هذا العتاب إلا رسوخا فى المحبة و لوعة و جوى ، دعه يقص قصته بلسانه البليغ :

« و نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيهـــا الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس و تغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبى فاستكانا و قعـــدا فى بيوتهما يبكيان ، و أما أنا فكنت أشب القوم و أجلدهم فكنت أخرج و أشهد الصلاة مع المسلمين و أطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، و آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة و هو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام ، فقلت يا أبا قتادة ! أنشدك بالله ! هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فقال : الله و رسوله أعلم ، ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار » .

و اقرأ معى كذلك حديث الافك الذى ظهرت فيه براعة السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها الأدبية و قوتها البيانية ، و حسن تصويرها ووصفها للعواطف و المشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة ، و قد تجلت فى هذه القطعة رقـــة عاطفة المرأة المحبة لزوجها، مع إباء الحرة الواثقة بعفافها وطهارتها ، المؤمنة بربها،

www.abulhasanalinadwi.org

و قد أضفى هذا المزيج الغريب من الرقة والشدة ، و العاطفة و العقل . زد إلى ذلك بيان عائشة التى تقلبت فى أعطاف البلاغة العربية وانتقلت فيها من بيت إلى بيت ، قد أضفى كل ذلك على هذه الرواية من الجمال الفنى ما يجعلها من القطع الأدبية الخالدة فى الأدب .

انظر كيف تصف ما تقوله الناس و تحدثوا به و ما شعرت به من تغير فى وجه الرسول ﷺ ، تذكر كل ذلك فى حياء المرأة و أدبها من غير إبهام أو عى:

« قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون فى أصحاب الافك لا أشعر بشئ من ذلك ، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . إنما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول كيف تيكم ؟ ثم ينصرف فذلك يريبنى ، و لا أشعر بالشر » .

و تذكر توجعها من الخبر المشاع فتقول : « فبكيت يومى ذلك كله ، لا يرقأ لى دمع و لا أكتحل بنوم ، قالت : و أصبح أبواى عندى ، و قدبكيت ليلتين و يوما لا أكتحل بنوم و لا يرقأ لى دمع حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى » .

و تتقدم فى الحكاية و تذكر كيف يسألها رسول الله ﷺ عما قيل عنها ويعزم عليها الصدق ، فلا تلبث أن تعتريها حمية المرأة العفيفة الفاضلة ، ويقلص دمعها حتى لا تحس منها بقطرة ، و ترجو أباها و أمها أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ فيمتنعان و يفضلان السكوت حياءاً من رسول الله ﷺ و استحياءاً من الدفاع عن قضية بنتهما و هو الدفاع عن النفس ، فتنبرى للكلام القوى

الصريح المبين — و هى البليغة الأدبية — وتتمثل بقول سيدنا يعقوب وتفوض أمرها إلى الله ، وتنزل براءتها من السماء فتطلب منها أمها أن تشكر رسول الله ﷺ و تقوم إليه فتأبى — فى دلال العفائف وأنفة المؤمن — أن تحمد إلا الله الذى أنزل براءتها من فوق سبع سماوات ، و خلد طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآن و يؤمن به .

واقرأ كذلك حكايتها للهجرة النبوية و ذكرها لتفاصيلها و ما وقع لرسول الله ﷺ و صاحبه رضى الله عنه فى الطريق ، و وصولهما إلى المدينة ، وكيف تلقاهما الأنصار، وفرحوا بقدوم رسول الله ﷺ وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ ، و البيان القادر الوصاف .

و هنالك روايات أخرى طويلة النفس ، ضافية البيان ، تشتمل على غرر الكلام و بدائعه الحسان و مناهج العرب الأولين فى كلامهم ، كحديث صلح الحديبية و حديث الايلاء وغير ذلك ، كانت تستحق أن تكون فى المكانة الأولى فى دراساتنا الأدبية ، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين والناقدين ، لأنها لم تدخل فى دواوين الأدب ، و لأن تصورهم للادب كان تصوراً محدوداً جامداً لايعدو الصناعة .

ويلى الحديث كتب السيرة ، فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأقحاح ، ومثلت تلك اللغة البليغة التى كانت فى عصور العربية الأولى و هذبها الاسلام ورققها ، واشتملت على قطع أدبية لايوجد لها نظير فى المكتبة العربية المتأخرة .

اقرأ فى سيرة ابن هشام حديث حليمة ابنة أبى ذويب السعدية عن رضاعة رسول الله ﷺ واقرأ فيها قصص الاضطهاد والتعذيب، واقرأ فيها مغازى رسول

www.abulhasanalinadwi.org

الله ﷺ و حروبه ، و اقرأ فى كتب الحديث و الشمائل ، وفى كتب التاريخ والسير أحاديث الوصف و الحلية تجد من القدرة الفائقة على الوصف و التعبير والبيان الساحر لدقائق الحياة وخوالج النفس وتر من اللغة النقية الصافية واللفظ الخفيف و التعبير الدقيق الرقيق ما يطربك و يملؤك سروراً ولذة وثقة و إيماناً بعبقرية هذه اللغة ، و رغبة فى دراستها و التوسع فيها .

و هكذا صان الله هذه اللغة الكريمة الأمينة للقرآن من الضياع و انتقلت ثروتها من جيل إلى جيل و من كتاب إلى كتاب ، حتى جاء دور التأليف و التاريخ فى القرن الثالث و الرابع ، و حفظ لنا المؤرخون أمثال الطبرى والمسعودى ، والأدباء ، أمثال الجاحظ و ابن قتيبة وأبى الفرج الأصبهانى ثروة زاخرة من الأدب فى كتبهم وحفظوا لنا تلك اللغة العذبة البليغة التى كان العرب الصرحاء يتكلمون بها فى بيوتهم و على موائدهم و فى مجالس انبساطهم ، و جاء منها الشئ الكثير فى كتاب البخلاء للجاحظ و كتاب الامامة و السياسة لابن قتيبة وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (على ضآلة قيمة الكتابين الأخيرين التاريخية) و هذه كتب التاريخ و الأدب التى تمثل لنا العربية فى جمالها الأول و نقائها الأصيل و سعتها النادرة .

ثم جاء دور المتكلفين المقلدين للعجم ، ونبغ فى العواصم العربية أمثال أبى إسحاق الصابى وأبى الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد ، وأبى بكر الخوارزمى ، و بديع الزمان الهمدانى وأبى العلاء المعرى ، واخترعوا أسلوباً للكتابة و الانشاء هو بالصناعة اليدوية و الوشى و التطريز أشبه منه بالبيان العربى السلسال و كلام العرب الأولين المرسل الجارى مع الطبع ، وغلب عليهم السجع والبديع و غلوا فى ذلك غلواً أذهب بهاء اللغة و رواءها وقيد الأدب بسلاسل و أغلال أفقدت

حريته و انطلاقه و خفة روحه وجماله .

وتزعم هؤلاء الأدب العربى واحتكروه وخضع لهم العالم العربى الاسلامى لنفوذهم و علو مكانتهم تارة ، و للانحطاط الفكرى والاجتماعى الذى كان يسود على العالم الاسلامى أخرى . و أصبح أسلوبهم للكتابة هو الأسلوب الوحيد الذى يحتذى و يقلد فى العالم الاسلامى .

و جاء الحريرى فألف المقامات — وهو أسلوب الكتابة المسجعة المختمر — و قد تهيأت لقبولها العقول فعكف عليها العالم الاسلامى دراسة و شرحا وتقليداً و حفظاً ، و تغلغلت فى مدارس الفكر و الأدب ، وبقيت مسيطرة على العقول و الأقلام أطول مدة تمتع بها كتاب أدبى ، و ما ذاك لفضل الكتاب بل لأنه قد وافق هوى فى النفوس و صادف عصر الجمود و العقم الأدبى فى العالم الاسلامى .

ثم جاء القاضى الفاضل — مجدد أسلوب الحريرى و بالأصح مقلده — و هو وزير أعظم دولة إسلامية فى عصرها ، و كاتب سر أحب سلطان فى عهده صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين و معيد مجد المسلمين — فانتشر أسلوبه فى العالم الاسلامى و حرص على تقليده الكتاب و المنشؤن فى أنحاء المملكة الاسلامية (١) .

وهكذا بقى أسلوب وحيد يتحكم فى العالم الاسلامى ويسيطر على الأوساط الأدبية و أصبح ما خلفه هؤلاء الكتاب المتصنعون من تراث أدبى هو المعنى بالأدب العربى ، و جاء المؤرخون للأدب فاعتبروهم أئمة البلاغة و أمراء البيان وأصحاب الأساليب وقدموا ماكتبوه وعرضوه للدارسين والباحثين وقلد بعضهم بعضاً

١ — ظهرت نماذجهم فى الكتاب لقيمتها الفنية و لأنها تمثل دوراً خاصاً من تاريخ الأدب العربى .

www.abulhasanalinadwi.org

و تناقلوه ، وأصبحت كتب التاريخ و الأدب نسخة واحدة و أصبحت الكتابة صورة واحدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، لا يستثنى منهـا إلا عبقريان اثنـان ، أولهما ابن خلدون ، و ثانيهما الأمام أحمـد بن عبد الرحيم الدهلوى (١) (م ١١٦٧هـ) .

و تناسى هؤلاء ما كتب غيرهم وانصرف الناس — حتى الباحثين منهم — عن ذخائر الأدب العربى الثمينة ، و لم يفكر أحد فى أن يبحث فى كتب التاريخ و السير و التراجم و فى مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تفوق — فى قوتها و حيويتها ، و سلاستها و سلامتها و فى بلاغتها و جمال لغتها — على دواوين أدبية و مجاميع و رسائل أكب عليها الناس و افتتنوا بها .

هذا وقد بقيت طائفة من العلماء — حتى فى عصور الانحطاط الأدبى — غير خاضعين لأسلوب تقليدى فى عصرهم ، متحررين من السجع والبديع والصنائع و المحسنات اللفظية يكتبون و يؤلفون فى لغة عربية نقية و فى أسلوب مطبوع يتدفق بالحياة ، إذا قرأه الانسان ملكه الاعجاب وآمن بفكرتهم وخضع لعقيدتهم ولما يقرروفه، وهذه القطع التى طويت فى أثناء كتب علمية أودينية فجهلها الأدباء وزهد فيها تلاميذ الأدب هى من بقايا الأدب العربى الأصيل، وهى التى عاشت بها العربية هذه السنين الطوال و هى التى يفزع إليها المتـأدب المتذوق و هى رياض خضراء فى صحراء العربية القاحلة التى تمتد من عصر ابن العميد إلى عصر القاضى الفاضل إلى أن جاء ابن خلدون .

إن ما كتب هؤلاء العلماء غير معتقدين أنهم يكتبون للأدب ولا زاعمين

١ — اقرأ كتابه الفريد «حجة الله البالغة» ، و اقرأ ترجمة مؤلفه فى «نزهة الخواطر» الجزء السادس طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (الهند).

أنهم فى مكانة عالية من الانشاء هو الذى يسعد العربية ويشرفها أكثر مما يسعدها و يشرفها كتابات الأدباء و رسائلهم و موضوعاتهم الأدبية ، وأخاف لو أنهم قصدوا الأدب و تكلفوا الانشاء لفسدت كتابتهم و فقدت ذلك الرونق و تلك العذوبة التى تمتاز بها كتابتهم و خسرنا هذه القطع الجميلة المليئة بالحيـاة ، فقد التصقت بالأدب شروط وصفات وتقاليد هى المفسدة له ، الطامسة لنوره، فلابد فيه من السجع و الصناعة و لابد فيه من البديع والمحسنات اللفظية و لابد من تقليد من يعد فى الطبقة الأولى من الأدباء ، أما الكتابات العلمية التاريخيـة أو الدينية فليست فيها هذه التزامات و هذه الشروط القاسية فتأتى أبلغ و أجمل .

و نرى الكاتب الواحد إذا تناول موضوعا أدبياً و تكلف الانشاء تدلى و أسف و تعسف و تكلف و لم يأت بخير ، وإذا استرسل فى الكلام وكتب فى موضوع علمى أو دينى أحسن و أجاد ، هكذا نرى الزمخشرى متكلفاً مقلداً فى « أطواق الذهب » وكاتباً موفقاً بليغاً فى مقدمة «المفصل» و فى مواضع من تفسيره «الكشاف» ، و نجد ابن الجوزى غير موفق فى كتابه «المدهش» وكاتباً مترسلا بليغاً فى كتابه «صيد الخاطر» ، وظنى أنهما كانا يعتبران أثريهما الأدبيين « أطواق الذهب » و «المدهش» من أفضل كتاباتهما الأدبية التى يعتمدان عليها و يفتخران بها ولعل عصرهما صفق لهذين الكتابين الأطواق و المدهش أكثر مما صفق لكتاباتهم العلمية و الأدبية و الدينية ، و لكن قاضى الزمان وحاكم الذوق قد حكما بالعدل وليس اليوم للكتابين الأولين قيمة كبيرة أما صيد الخاطر و تلبيس إبليس و المفصل و الكشاف فهى جديرة بالبقاء جديرة بكل اعتناء .

ليس السر فى فضل هذه الكتابات العلمية و الدينية و تأثيرها و قوتها و جمالهـا هو التحرر من السجع و البديع و ترسلها فحسب بل السبب الأكبر

www.abulhasanalinadwi.org

هو أن هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة و عاطفة و عن فكرة و اقتناع و عن حماسة و عزم . أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق أو لارضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع أو حباً للظهور و التفوق ، و هذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة و الروح و لا تسبغ عليها لباس البقاء و الخلود و لا تعطيها التأثير فى النفوس و القلوب ، و الفرق بينها و بين الكتابات المنبعثة من القلب و العقيدة كالفرق بين الصورة و الانسان و كالفرق بين النائحة و الثكلى .

و يذكرنى هذا قصة رويناها فى الصبا و هو أن كلباً قال لغزال : مالى لا ألحقك و أنا من تعرف فى العدو و القوة ، قال : لأنك تعدو لسيدك و أنا أعدو لنفسى .

و قد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة أو يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابة لنداء ضميرهم و عقيدتهم مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم ويتحرق قلبهم فتنثال عليهم المعانى و تطاوعهم الألفاظ و تؤثر كتابتهم فى نفوس قرائها لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلافى قلب .

أما هؤلاء المتصنعون فانهم فى كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين قد يمثلون الملوك فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره ، و قد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر و قد يمثلون السعيد و قد يمثلون الشقى من غير أن يذوقوا لذة السعادة أو يكتووا بنار الشقاء ، وقد يعزون من غير أن يشاركوا المفجوع فى أحزانه وقد يهنؤن من غير أن يشاركوا السعيد فى أفراحه .

بالعكس من ذلك إقرا كتابات الغزالى فى « الاحياء » و فى « المنقذ من الضلال » ، و اقرأ خطب عبد القادر الجيلى (رضى الله عنه) ماصح منها ،

واقرأ ما كتبه القاضى ابن شداد عن صلاح الدين ، واقرأ ما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية فى كتبهما تر مثالا رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة و حياة و تأثيراً ، وذلك هو الأدب الحى الخليق بالبقاء و لا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة و عاطفة .

و هنالك شئ آخر و هو أن الايمان و صفاء النفس و الاشتغال بالله و العزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حس و لطافة نفس وعذوبة روح و نفوذاً إلى المعانى الدقيقة و اقتداراً على التعبير البليغ فتأتى كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها وصورة لروحه خفيفة على النفس مشرقة الديباجة لطيفة السبك بارعة فى التصوير لذلك كان من الأدب الصوفى و فى كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها و قوتها على مر العصور و الأجيال . و ترى من ذلك نماذج فى كلام السادة الحسن البصرى و ابن السماك و الفضيل بن عياض وابن عربى الطائى تعد من محاسن العربية ، واقرأ — على سبيل المثال — الحوار الذى دار بين ابن عربى ونفسه وسجله فى كتابه « رسالة روح القدس » .

إن هذه القطع الأدبية الدافقة بالحياة والقوة والجمال كثيرة غير قليلة فى المكتبة العربية إذا جمعت تكونت منها مكتبة لكنها منثورة مبعثرة فى هذه المكتبة مطوية مغمورة فى أوراق كتب ومؤلفات لا تجدها فى ركن الأدب و الانشاء فى مكتباتنا العربية ولا يذكرها المؤرخون للأدب فى كتبهم ، هذه القطع أصدق تمثيلا للغة العربية و أدبها الرفيع ومحاسنه من كثير من الكتب المختصة بالأدب و من كثير من المجاميع و الرسائل و المقامات و المقالات الأدبية التى تعتبر أساس الأدب و زهو العربية و محصول العقول .

و هذه القطع هى التى تخدم اللغة و الأدب أكثر مما تخدمها كتب اللغة

www.abulhasanalinadwi.org

و الأدب ، و هى التى تفتق القريحة و تنشط الذهن و تقوى الذوق السليم و تعلم الكتابة الحقيقية .

إن هذه القطع و النصوص منثورة كما قلت فى كتب الحديث و السيرة و التاريخ و كتب الطبقات و التراجم و الرحلات و فى الكتب التى ألفت فى الاصلاح و الدين و الأخلاق و الاجتماع ، و فى بحوث علمية و دينية ، و فى كتب الوعظ و التصوف و فى الكتب التى سجل فيها المؤلفون خواطرهم و تجارب حياتهم ، و ملاحظاتهم و انطباعاتهم ، و رووا فيها قصة حياتهم .

هذه ثروة أدبية زاخرة تكاد تكون ضائعة ، و قد جنى هذا الاهمال على اللغة و الأدب و على الكتابة و الانشاء و على التأليف و التصنيف و على التفكير ، فقد حرمه مادة غزيرة من التعبير و باعثاً قوياً للتفكير .

مخطئ من يظن أن المكتبة العربية قد استنفدت و عصرت إلى آخر قطراتها، إنها لا تزال مجهولة تحتاج إلى اكتشافات و مغامرات ، إنها لا تزال بكراً جديدة تعطى الجديد و تفجأ بالغريب المجهول ، إنها لاتزال فيها ثروة دفينة تنتظر من يحفرها و يثيرها .

إن مكتبة الأدب العربى فى حاجة شديدة إلى استعراض جديد و إلى دراسة جديدة و إلى عرض جديد .

و لكن هذه الدراسة و هذا الاستعراض يحتاجان إلى شئ كبير من الشجاعة و إلى شئ كبير من الصبر و الاحتمال و إلى شئ كبير من رحابة الصدر و سعة النظر فالذى يخوض فيها ليخرج على العالم بتحف أدبية جديدة و ذخائر عربية جديدة ، ينبغى ألا يكون ضيق التفكير ، جامداً متعصباً فى فهمه للأدب متعصباً لبلد أو لطبقة أو لعصر ، تهوله ضخامة العمل ، واتساع المكتبة

العربية ، أو يوحشه عنوان دينى أو يمنعه — من الاختيار و الدراسة — اسم قديم لا صلة له بالأدب والأدباء ، يجب أن يكون حر التفكير ، واسع الأفق بعيد النظر متطلعاً إلى الدراسة و التجربة واسع الاطلاع على الكنوز القديمة يفهم الأدب فى أوسع معانيه و يعتقد أنه تعبير عن الحياة و عن الشعور و الوجدان فى أسلوب مفهم مؤثر لا غير .

إننى لا أزدرى كتب الأدب القديمة — من رسائل ومقامات وغيرها — و لا أقلل قيمتها اللغوية و الفنية و أعتقد أنها مرحلة طبعية فى حياة اللغات و الآداب ، و لكننى أعتقد أنها ليست الأدب كله و أنها لا تحسن تمثيل أدبنا العالى الذى هو من أجمل آداب العالم وأوسعها، وأنها جنت على القرائح والملكات الكتابية ، والمواهب والطاقات و على صلاحية اللغة العربية ومنعت من التوسع و الانطلاق فى آفاق الفكر و التعبير و التحليق فى أجواء الحقيقة و الخيال ، و تخلفت بهذه الأمة العظيمة ذات اللغة العبقرية و الأدب الغنى فترة غير قصيرة فخير لنا أن نعطيها حظها من العناية و الدراسة و نضعها فى مكانها الطبعى فى تاريخ الأدب و طبقات الأدباء ، و أن ننقب فى المكتبة العربية من جديد و نعرض على ناشئتنا و على الجيل الجديد نماذج جديدة من الكتب القديمة للأدب العربى حتى يتذوق جمال هذه اللغة و ينشأ على الابانة والتعبير البليغ ، و يتعرف بهذه المكتبة الواسعة و يستطيع أن يفيد منها .

على هذا الأساس ، وعلى هذه الفكرة ألفنا كتابنا « مختارات من أدب العرب» وهاهو الكتاب يجمع بين الطبعى والفنى — ولكل قيمة أدبية — ويجمع بين القديم والحديث، نرجو أن يقع من الأدباء والمعلمين موقع الاستحسان والقبول .

و قد ظهر الكتاب عام ١٣٥٩ هـ فى جزء واحد ، و كانت الفكرة

www.abulhasanalinadwi.org

التى تسيطر على الكتاب عند تأليفه هى أن نختار أجل النصوص و أكثرها حيوية فى أدبنا العربى الاسلامى ، بصرف النظر عن مستواها اللغوى ، فكانت المختارات من درجات مختلفة فى المادة اللغوية والمستوى الأدبى ، و كان الطالب يتأرجح بين السهولة و الصعوبة ، و ربما كان فى ذلك ترويح لنفسه ، إلا أننا رأينا فى الزمن الأخير ، و أشار به علينا بعض رجال التعليم ، أن نقسم هذه المختارات فى قسمين باعتبار درجاتها اللغوية ومستواها الأدبى ، ليسهل تطبيق هذا الكتاب والانتفاع به فى مناهج التعليم العربية، وليوافق مستوى الطلبة من طبقتين مختلفتين ، وقد اضطرنا بعض الأحيان ملاحظة الناحية التاريخية و الحرص على استعراض الأدب العربى فى تقدمه و تطوره وفى مراحله التاريخية المختلفة ، إلى عرض نماذج للنثر الفنى ، لا يرتضيها الذوق العربى السليم ، و يرى فيها الناقد انحرافا عن السليقة العربية الأولى وخضوعا للآداب العجمية ، وعوامل اجتماعية ، ولكنه واقع تاريخى و ثروة لغوية أدبية و أسلوب من أساليب الكتابة ، لم يسع المؤلف الاعراض عنها فأدخلها فى الكتاب تقريراً للحقيقة و وفاءً للتاريخ .

و انتهزنا فرصة إعادة الطبع ، فأضفنا إلى الكتاب بعض نصوص أخرى لرجال لا يعدون من الأدباء المحترفين المنقطعين إلى الأدب والكتابة ، على أنها لا تقل فى جمالها الأدبى و حسن التعبير و صدق التصوير عن النصوص الأدبية التى يقع عليها الاتفاق ، بل تفوق كثيراً منها .

و قد حلينا جيد هذا الكتاب بقطع مقتبسة من القرآن الحكيم ، و هذا الذى شرف قدر الأدب العربى — إذ نزل بلغته — و جعله أدبا عالمياً و أدباً خالداً ، ليعلم الطلبة أنه من نوع آخر . و أنه ليس من مدارك البشر ، إن هو إلا وحى يوحى ، و اتبعنا ذلك مختارات من الحديث النبوى الشريف ، ليعلموا أنه فى الطبقة الأولى من البلاغة البشرية و الحكمة النبوية .

و لله الحمد فى الأولى و الآخرة .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

لكهنؤ الهند

لعشر خلون من ربيع الأول ١٣٩١هـ

٦ مايو ١٩٧١م

« مختارات »

كما يراها أديب عربى كبير

و هو الاستاذ على الطنطاوى الذى يعتبر فى طليعة أدباء العربية اليوم و من أقدر كتابها و صاحب طريقة و أسلوب فيها و قد اشتغل بالتدريس فى جامعتى بغداد ودمشق و شغل منصب القضاء مدة من الزمن و له عشرات من المؤلفات أكثرها فى الادب و النقد و التاريخ .

إذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره ، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدى تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام ، و ذهب كل واحد من أعضاء اللجنة — و كلهم من الأدباء — يبحث ويفتش ، فعدنا جميعاً و قد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية ، وأجمعها لفنون القول وألوان البيان ، مختارات أبي الحسن .

و لقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذى حشرناهم فيه ، إلى فضاء الحرية ، وإلى ضياء النهار ، فلا نقتصر فى الاختيار ، على « وصف الكتاب » للجاحظ ، و هو جمل مترادفة ، لا تؤلف بينها فكرة جامعة ، و لا يمدها روح ، و لا تخالطها حياة ، وعلى ألاعيب ابن العميد ، وغلاظات الصاحب وهندسات القاضى الفاضل ، فتنفر التلاميذ من الأدب ، و تكرهه إليهم ، و كنا نقول لهم إن البيان الحق عند غير هؤلاء ، و إن أبا حيان التوحيدى أكتب من الجاحظ ، و إن كان الجاحظ أوسع رواية و أكثر علما ، و أشد تصرفا فى فنون القول ، و أكبر أستاذية ، و إن الحسن البصرى أبلغ منهما ، و إن ابن

www.abulhasanalinadwi.org

السماك أبلغ من الحسن البصرى (١) .

و إن النظر فيما كتب الغزالى فى الاحياء ، و ابن خلدون فى المقدمة ، وابن الجوزى فى الصيد ، و ابن هشام فى السيرة ، بل والشافعى فى الأم ، و السرخسى فى المبسوط ، أجدى على التلميذ و أنفع له فى التأدب ، من قراءة حماقات الصاحب ، و مخرقات الحريرى و ابن الأثير .

وكتبت فى ذلك مراراً ، فما التفت إلى ذلك أحد ، فيئست منه ، حتى وجـدت كتاب أبى الحسن ، فاذا هو قد نفض كتب الأدب و التاريخ نفضاً ، و حرثها حرثاً ، فاستخرج جواهرها ، فأودعها كتابه (٢) .

---

١ — و قد تبدو هذه الأحكام غريبة على من ألف التقليد فى الأدب و عكف عليه ، و لكنها حق ، كما أن من الحق أن أبا تمام أشعر من المتنبى و أعظم .

٢ — الأستاذ على الطنطاوى فى مقدمته لكتاب « المسلمون فى الهند » طبع دار الفتح دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org